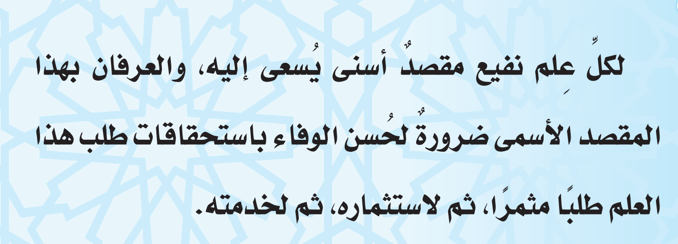


المقصد الأسنى من مدارسة علم البلاغة العربي



لكلِّ علمٍ نفيع مقصدٌ أسنى يُسعى إليه، والعرفان بهذا المقصد الأسمى ضرورةٌ لحُسن الوفاء باستحقاقات طلب هذا العلم طلبًا مثمرًا، ثم لاستثماره، ثم لخدمته.



أ.د. محمود توفيق محمد سعد(*)

والله -سبحانه وتعالى- في طليعة سورة (البقرة) بيَّن لنا المقصد الأسنى من القرآن فقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، من بعد أن بيَّن لنا عُلوَّ مكانته فيما أُنزِلَ له: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ (البقرة: ٢)، وعصمته من أن يكون فيه ما يمكن أن يرتاب فيه عقيل نصيف: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢)، فكان في هذا الاستهلال إعلامٌ لنا أن نستهل أعمالنا -أقوالًا أو أفعالًا- ببيان قيمة ما سنقدم عليه.

وحقٌّ مبينٌ مكينٌ على من ابتُلي بتعليم علم لطلابه، أن يكون الحريص على تبيين المقصد الأسنى لذلك العلم؛ ليكون في عرفانهم به ما يحفزهم على أن يؤثروه على كل مشتهى نفس من متاع الدنيا، ويحفزهم على استلذاذ حمل كل ثقيلة تفضي بهم إلى معاقد العز الأمجد نُزلًا، الأحمدِ عُقبى.

شاع في طلاب العلم أنَّ (علم البلاغة العربي) إنما نشأ لإثبات أنَّ القرآن معجِز، بل ذهب بعض إلى أن ارتباط هذا العلم بالقول في الإعجاز كان عاملًا من عوامل بطء حركة تطوُّره وتجدُّده وانفتاحه، ومواكبته حركة تطوُّر وتجدُّد مناهج الإبداع الأدبي شِعرًا ونثرًا.

قد يبدو في ظاهر الأمر أن هذا قول قويم، ولو صحَّ الأخذ به، والاستكانة إليه؛ لترتب

(*) عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشَّريف.

عليه أن من كان مؤمنًا بأن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى، وبأنه كتابٌ عزيزٌ معجِزٌ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢)، لم يكُ بحاجة إلى هذا العلم، ولترتّب عليه أن المستهدف بالقول في هذا العلم من ليس بمؤمن بأن القرآن معجِز، وهذان اللازمان كما ترى لا يستطيع عقيل أن يسكت عنهما فضلًا عن أن يتبناهما.

(علم البلاغة العربي) مقصده الرئيس القيوم إنما هو أن يتحقَّق مَن كان فيه ذا قدَم صِدقٍ، وكان خريتًا، أحوذيًّا، نطاسيًّا بنعمة حُسن الإصغاء إلى الله -سبحانه وتعالى- لينعم بالحُسنى: بحُسنى الفهم عن الله جلَّ جلاله، وبحُسنى الفهم عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم؛ ليخرج نفسه وقومه وأمَّته والناس جميعًا من الظلمات إلى النور، فهو علم إيماني تربوي إصلاحي، هو علم ينقل مَن يُحسِنُ الفهمَ والاستثمارَ والاستطعامَ من مقام ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البقرة: ١٤) أولئك الذين ما يزال الإيمان عقيدةً وسلوكًا فعلًا من أفعالهم إلى مقام ﴿الْمُحْسِنِينَ ﴾ (التوبة: ٩١) بمستوييه: المراقبة الفؤادية: «فإنه يراك»، والمشاهدة الفؤادية: «كأنك تراه»، وليحوم حول حمى مقام (الصديقية) التي عنوانها الفهم عن الله -جلَّ جلاله- وعن رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ومن سُبُل الترقِّي إلى هذه النعمة: نعمة الفهم عن الله -جل جلاله- في آياته الكونية والقرآنية، والفهم عن سيدنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- إتقان (علم البلاغة العربي) تصورًا علميًّا، وتدبرًا فؤاديًّا، وتذوقًا روحيًّا، وتمثلًا سلوكيًّا ليرى الله -سبحانه وتعالى- أثر هذه النعمة عليه[1].

ذلك هو المأمُّ الأنفَس والمحجُّ الأقدس من مدارسة (علم البلاغة العربي).

(نقد القول في علاقة العقل البلاغي العربي بالكلمة البديعة شعرًا ونثرًا)

لعلك من بعد أن سمعتَ ما ذهبت إليه من أن المقصد الأسنى من مدارسة (علم البلاغة العربي) هو تحقيق حُسن الفهم عن الله -سبحانه وتعالى- وعن سيدنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- ليتهيَّأ له التطواف حول حمى (الصديقية) تذهب إلى أن هذا يلزمه قطيعة مدارسة (علم البلاغة العربي) ومدارسة الكلمة الإبداعية شعرًا ونثرًا، وهذا ما ينقضه واقع الحال.

(١) أشير بهذا إلى أن أركان إتقان (علم البلاغة العربي) إتقانًا يرضي الله -سبحانه وتعالى- أربعة:
(أ) التصور العلمي لدقائق حقائق القضايا والمسائل، ومذاهب وآراء أعيان أهل هذا العلم.
(ب) التدبر الفؤادي لدقائق معاني الهدى الإحسانية.
(ج) التذوق الروحي لما فيه من الرحمة والبشرى والشفاء.
(د) التمثل السلوكي تمثلًا يحقق محبوب ربه -سبحانه وتعالى- منه: رؤية أثر هذه النعمة عليه في جميع أمره ظاهره وباطنه.
وعلى قدْر تحقُّق هذه الأركان يكون تحقُّق إتقانك (علم البلاغة العربي).




الأمر على غير ما يتوهم من أن ما ذكرت من مقصدية مدارسة (علم البلاغة العربي)؛ ذلك أن هذه المقصدية لا تتحقق إلا باجتياز مراحل يستمد شرف اجتيازها بإتقان من شرف المقصد؛ لأن اجتيازها بإتقانٍ وسيلةٌ إلى هذه الغاية، وقيمة الوسائل من قيمة الغايات، فكل ما يتوقف بلوغ المقصد النبيل عليه هو نبيل مثله.

ولمَّا كان من الجلي الذي لا يخفى أن القرآن إنما نزل بلسان عربي مبين، والله -جل جلاله- قد صرَّف القول عن هذه الحقيقة التي هي من عظيم نِعَمه علينا.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (يوسف: ١، ٢)، ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

ومِنْ ثَمَّ كان حقًّا أنه لا سبيل إلى فقهه إلا على وَفق معهود العرب في الإبانة فهمًا وإفهامًا زمن تنزيل القرآن على سيدنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- فمن لم يكُن العليم بمعهود العرب في الإبانة في أفقها العلي المدهش ممثلًا فيما قالت الشعراء من قبل المبعث وفي زمنه، فإنه لا محالة لا سبيل له إلى حُسن فقه البيان القرآني؛ ذلك أن مَن عجز عن فقه الكلمة البديعة شِعرًا ونثرًا فيما قبل زمن نزول القرآن وفي زمان نزوله، فهو لا محالة أشد عجزًا عن فقه البيان الإلهي العليِّ المعجِز.

ومِنْ ثَمَّ كان مِنَ استحقاقات نعمة الفهم عن الله -جل جلاله- في كتابه والفهم عن سيدنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- أن يكون المرء كَمِيلَ فقهِ الكلمة البديعة المدهشة شِعرًا ونثرًا من قبل زمن الوحي، وفي أثنائه، فذلك الزمان هو الزمان الذهبي.

ولما كان تحقيق التميز في فقه الكلمة البديعة شِعرًا ونثرًا في القرن الثاني الهجري وما بعده يتوقَّف على مدارسة الكلمة البديعة شِعرًا ونثرًا مدارسةً تحيط بكل جوانبها؛ ليكون ذلك زاده إلى تحقيق شرف الفهم عن الله -سبحانه وتعالى- وعن رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

من هنا كانت عناية العقل البلاغي العربي بفقه الشِّعر والنثر وبتذوقهما وباستطعامهما صورةً من صور التزلُّف إلى الله سبحانه وتعالى.

وحين تكون عناية المرء بشيء زُلْفَى إلى الله -تعالى- لا تكون عناية أخرى به تساميها؛ لذا أذهب إلى عناية العقل البلاغي بالكلمة شِعرًا ونثرًا تسمو على عناية غيره من العقول، ولا سيَّما العقل الأدبي النقدي، أو ينبغي أن

تكون كذلك؛ لأن العقل غير البلاغي العربي يتخذ القول في الكلمة البديعة غاية، بيْنا العقل البلاغي العربي يتخذ القول فيها وسيلةً إلى غاية هي من الزُّلْفَى إلى الله -جلَّ جلاله- ممَّا يجعله في اجتهاده لإتقان العناية بالكلمة الإبداعية عنايةً فائقةً تتلذذ بالاعتكاف فيها وفاءً بحقها، فتلك العناية الفائقة بها هي من مفاتح خزائن معاني الهدى الإحسانية في بيان الوحي قرآنًا وسُنة، وفهم هذه المعاني هو بوابة جنَّة المسلم في الدنيا: معرفة الله -تعالى- ومحبَّته، واستجماعه بين شرف محبَّته لله -تعالى- ومحبَّة سيدنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- وشرف محبَّة الله -تعالى- له، فإذا هو المحبُّ المحبوبُ، فغاية الغايات أن تكون محبوبَ الله تعالى، ولن تكون إلا إذا كَملْتَ في مقام محبَّته، ولن تَكْمُلَ في مقام محبَّته -تعالى- إلا إذا كنت قد طعمت من معاني الهدى الإحسانية المكنوزة في بيان الوحي قرآنًا وسُنةً، ولن تكون كذلك إلا إذا كنت خريتًا أحوذيًّا في فقه الكلمة شِعرًا ونثرًا، وكنت قيومًا على الإحاطة بمعهود العرب في الإبانة فهمًا وإفهامًا زمن تنزُّل الوحي على سيدنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وما قبله.

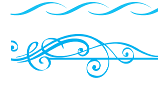
ومن هنا يتبيَّن لك سبب إخفاق غير قليل ممَّن يمارسون النظر في بيان الوحي قرآنًا وسُنة، فهم لا يمارسون النظر بما يوجبه العقل البلاغي العربي من استحقاقات للنظر في بيان الوحي، فغير قليل منهم لم يتأهَّل لذلك باكتساب العلوم والمعارف والمهارات والأدوات الكسبيَّة والوهبيَّة العقليَّة والنفسيَّة والقلبيَّة والروحيَّة، فأقدموا على بيان الوحي قرآنًا وسُنةً إقدامهم على غيره من البيان، وهم الذين رتَّلُوا طليعةَ بيان الله -تعالى- عن القرآن في أول سورة (البقرة) التي سمَّاها سيدنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- بـ(سنام القرآن).

روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن؛ هي آية الكرسي»[٢].

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١، ٢)، ويقول في طليعة سورة (لقمان): ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (لقمان: ١ - ٣).

دلَّنا بهذا على أن كمال هديه إنما يكون للمتقين وللمحسنين، فعلى قدْر تأهُّل المرء يكون عطاء الله -تعالى- له من القرآن، فدقائق لطائف بلاغة القرآن لا تكون للعقل البلاغي

(٢) أخرجه الترمذي، برقم: (٢٨٧٨)، وأحمد في مسنده، من حديث مَعقِل بن يَسار، برقم: (٢٠٣٠٠)، بنحوه، والطبراني في المعجم الكبير، من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، برقم: (٨٦٤٤)، بنحوه، وابن حبَّان في صحيحه، من حديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-، برقم: (٤١٩)، بنحوه.



إلا إذا كان صاحبه تقيًّا محسنًا، وإلا فنصيبه من بلاغة القرآن نصيب الناس من هداية القرآن المعبّر عنها في قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥).

فهذه هداية (إبانة) للناس كافة، تَقيِّهم وعَصيِّهم، وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان: ٣) هداية إبانة وإعانة وتسديد وتوفيق، وفرق شسيع بين الهدايتين، فاختر لنفسك[٣].

لذا أذهب إلى أن مدارسة العقل البلاغي العربي للبيان الوحي؛ قرآنًا وسُنةً، إذا لم تتصاعد بصانعها إلى مدرجة «فإنه يراك»، ثم إلى مدرجة «كأنك تراه»، فإنها لا تكون مدارسةً يتزلَّف بها إلى مَن أنزل القرآن الكريم على عبده ونبيِّه ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ولا يكون صانعها ممَّن يقال له يوم القيامة: «اقرأ وارتقِ...».

هذا الارتقاء المشهود لصاحب القرآن يوم القيامة في الجنة له نظيره في الدنيا، وهو يقرأ ويتدبَّر البيان القرآني، وهو مليك لاستحقاقات التدبُّر المُثْلَى، فيرتقي في درجات معاني الهدى الإحسانية في القرآن؛ فمعانيه هي جنَّة المسلم في الدنيا، فمَن أدخلها في فؤاده في الدنيا أدخله الله -جل جلاله- جنَّته في الآخرة، فاختر لنفسك.

ممَّا سبق يمكنك أن تدرك شيئًا من قيمة (علم البلاغة العربي) واستحقاقاته، وتدرك أنك بتشاغلك عن أن يكون مكونًا من مكونات طالب علم ما من علوم الكتاب والسُّنة لا تكون عالمًا ربانيًّا تخرج بلسان حالك ومقالك الصدوق نفسك وقومك وأمَّتك والناس أجمعين من الظلمات إلى النور، وتلك رسالة سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)[٤].

والحمد لله رب العالمين.

(٣) أذهب إلى أهمية أن يكون طالب علم البلاغة العربي ذا مخادنة نفسية وعقلية وقلبية بأصول فقه (الإحسان): ما يُسمى بالتصوف السلوكي السني، وليس التصوف الفلسفي التغريبي، ولو جعل هذا مكونًا من مكونات طالب علم البلاغة العربي في مرحلة الدراسات العليا تربية سلوكية؛ لكان أثر ذلك عليهم جِدَّ عظيم ونبيل.

(٤) أشير بهذا إلى أنَّ (علم البلاغة العربي) تصورًا عقليًّا، وتدبرًا قلبيًّا وتذوقًا روحيًّا و تأدبًا سلوكيًّا- يجب أن يكون مكونًا رئيسًا لكل طالبي عِلم من علوم الكتاب والسُّنة، وأن يكون متطلبًا جامعيًّا في مرحلتَي (الدراسات العليا)، ومثله في هذا (علم أصول الفقه)، و(علم أصول فقه الإحسان): (علم التصوف السلوكي).